

من عملية استكشاف مبهمة ، انطلقت من افتراض عام :

إذا كان الاطفال يستخدمون لغة واحدة ويمبرون بأساليب متشابهة في رسومهم يخلفونها عادة في دفاترهم ، او على الجدران ، او على الارض ، فان هذه التخطيطات والرموز والاشكال تتمايز فيما بينها على مستويين اساسيين : الاول : هو ان كل طفل يتسم بفرديته الخاصة ، في ظروف نمو طبيعي (اي ان الطفل ليس مصابا بمرض جسماني او نفسي) ، تفصح عن نفسها من خلال هذه الرسوم ، كاشفة عن رؤياه للاشياء ، والحياة ، والتجربة . متضمنة شخصيته ومواقفه الوجدانية والذهنية مما حوله . الثاني : ان مجموع الاطفال ، في وسط اجتماعي محدد ، بشروط اقتصادية ، وثقافية واجتماعية معينة ، تحكمهم تجارب حياتية وانفعالات ومؤثرات ذات طبيعة عامة مشتركة ، لا يلبث ان تتشكل تعابيره ورسومهم من خلال معاشتهم للواقع القائم ، وتكتسب طابعا جماعيا ، وتعطي فردية الطفل بعدها الاجتماعي وتطبع رسومه برموز البيئة والثقافة والحياة الاجتماعية ، وتعكس ، هذا الواقع ، بلغة الخيال والحلم ، حيث يعاد تركيب هذا الواقع ، او يختصر ، او يضم ، او يرفض ، او يزوج ما بين الصحاح ورفض الطفل له . ومن ثم ، فان اي محاولة لاستكشاف رؤيا اطفال المخيمات عشية الحرب من خلال رسومهم ، لا بد ان تكشف بصورة حية ، ونموذجية ، عن معاناة الاطفال لواقعهم كما عاشوه ، والذي ما زال يردد أصداءه في وجدانهم وذاكرتهم . وكان ان بدأت المحاولة ، من خلال مخيم البقعة ، الذي أقيم على اثر الحرب ، نظرا للتجربة الانسانية الخاصة التي عاشها سكان المخيم ، فقد خضعوا للاضطهاد والقتل اكثر من مرة ، كما عانت غالبيتهم من اوضاع معيشية واجتماعية وثقافية غاية في البؤس . لذلك كان اللجوء الى اطفال هذا المخيم يعني استكشاف ابعاد كافة هذه المعطيات على ضوء معاناتهم لها .

لقد حكينا هذا التصور العام : لا بد ان نجد في رسوم اطفال المخيم ، ما هو مميز ومختلف عن رسوم الاطفال الاخرين في كثير من بقاع عالنا (أي مختلف ومميز بسبب معاناته لتجربة خاصة) ، بل عن رسوم اطفال آخرين في عمان نفسها .

لئن كان هذا التصور ، مبهما ، غير محدد بحيثيات وتفصيل ، فلان اكثر ما يمكن افتراضه في طابع

عليه متنوعة ، كالمقارنة ما بين رسوم الاطفال المتأخرين والاطفال العاديين ، او لدراسة رسوم الاطفال المصابين بأمراض عقلية او نفسية ، او بظنرين نفسيا ، او استخدام رسوم الاطفال كأداة في ميدان علم النفس المخبري (الاكليتيكي) ، لقياس نكاء الاطفال ، او للمقارنة ما بين رسوم الاطفال من مجتمعات متقدمة وأخرى من مجتمعات متخلفة . كذلك درست العلاقة ما بين الرسوم واللغة عند الاطفال . واهتم بعض الباحثين بدراسة رسوم الاطفال من جوانب جمالية وافية كالتميز ما بين رسوم الموهوبين والمقلدين او الاهتمام بالفروق بين رسوم الاطفال ، الذكور والاناث . ومن جهة اخرى يمكن التمييز بين الجهود العلمية التي انصبت في نطاق بحث ودراسة رسوم الاطفال من خلال اعتبارات مختلفة اخرى ، كاعتماد بعض هذه الجهود على متابعة دراسة طفل واحد ، او الاهتمام على وجه التخصيص بموضوعات رسوم الاطفال ، او اعتبار رسم الجسم الانساني موضوعا لدراسة النمو العام عند الطفل .

بها يمكن طابع هذه التجارب واهتماماتها ، ومهما كانت المناهج واساليب البحث التي استخدمها هؤلاء الدارسون متنوعة ومتباينة ، فانها قد كشفت في مجملها عن حقيقة اساسية وهي ان للاطفال فنا خاصا بهم ، فنا متميزا بقواعد وقوانين وانماط شكلية تعطي رسومهم هذه اللغة الخاصة . كما دلت هذه التجارب والدراسات ، عن امكانات واسعة لاستقراء هذه الرسوم من عدة جوانب ، فهي تتضمن طبيعة جمالية خاصة ، وتكشف عن جوانب ذاتية من شخصية الطفل ، وتبين مدى التأثير الثقافي والاجتماعي السائد وتعكس هذه الرسوم في مجموعها ، انفعالات ومواقف الاطفال من مناخ اجتماعي معين . كذلك تكتسب رسوم الاطفال ، اذا اخذت كل منها على حدة ، وفي ظروف مقتنة اهمية خاصة ، من حيث كونها تعبر عن حالة الطفل الذهنية والنفسية والجسدية (١٦) .

(٢)

لماذا كانت هذه التجربة ؟ ما هو الهدف الكامن وراءها ؟ واين تقع تجربتنا هذه ، من الارث الواسع الذي كرسه التجارب والابحاث والاهتمامات العالمية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر وحتى الان ؟ لنقرر منذ البدء ، ان تجربتنا مع اطفال مخيم « البقعة » ، لم تكن اكثر